واجب المتعلمين والمسؤولين
في المحافظة على أمور الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة إلى الحكام الكرام حفظهم الله

أرفع هذه الرسالة لحكام المسلمين. وفقهم الله للتمسك بالدين، وسلام الله ورحمته عليهم أجمعين.

أما بعد:

فإن الله سبحانه في كتابه المبين وعلى لسان نبيه الصادق الأمين قد أوجب علينا بأن ننصح من ولاه الله أمرنا، فإن الدين النصيحة لله ولعباده ولأئمة المسلمين.

وقد أوجب الله على المؤمنين بأن يكونوا قوامين لله بالقسط - أي بالعدل - في أهلهم وعيالهم؛ إذ العدل قوام الدنيا، والدين صلاح المخلوقين.

وإن شباب المسلمين هم جيل المستقبل بحيث يسعد الناس بصلاحهم، ويشقون بفسادهم وإلحادهم. فما نحل والد ولده أفضل من أن ينحله أدباً حسناً يهذبه به على الصلاح والصلاة والتقى، ويردعه به عن السفه والفساد والردى.

فمن الواجب على حكام المسلمين الذين جعلهم الله رعاة عباده المؤمنين بأن يحموهم عما يضرهم مما يعد في استطاعتهم، فإن الوقاية خير من العلاج. وإن أضر ما يصاب به الشباب هو إهماله وإلقاء حبله على غاربه، يتصرف كيف يشاء بدون وازع ولا مراقب، والله يزع بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض.

إن مما ندرك على حكام المسلمين ما عسى أن يكونوا غافلين عن مضرته وسوء عاقبته، وذلك في فتحهم الأبواب لتسفير الطلاب إلى الخارج من بلدان أوروبا للتعلم كما زعموا. ولا أدري ما هذا العلم الذي يبتغونه عند أساتذة النصارى؟ أهو من العلم الضروري الذي يتعذر الحصول عليه في بلدان المسلمين كالعلم

بوسائل الصعود إلى سطح القمر؟ فإن هذا مما لا رغبة فيه لأحد، وقد باء أهله فيه بالفشل. أم هو العلم الشهير في سائر الجامعات والكليات والمعاهد والمدارس في سائر البلدان الإسلامية؟

وإننا لا نعلم شيئاً يبتغونه خارج البلدان العربية سوى تعلم اللغة الأجنبية؛ إذ هي غاية قصدهم ونهاية علمهم وعملهم، وإن الحصول عليها سهل متيسر في بلدهم كسائر العلوم والفنون، وذلك أن الله سبحانه قد أنعم على المسلمين بنعم كثيرة منها: نعمة الغنى بالمال الوافر الذي يستطيعون أن يجلبوا به كل نفس ونفيس، مما يحتاجون إليه من مصانع وصنّاع وأساتذة وأطباء وعلماء لسائر الفنون وكذا المعلمات، فهذا كله من السهل المتيسر متى صدقت العزيمة، ومتى قويت الإرادة حصل المراد، أو ليس من الحزم وفعل أولي العزم أن يقتصر الطلاب على التعلم لسائر العلوم والفنون في بلادهم ليستعينوا بالبيئة والمجتمع ورقابة الأهل والأصدقاء على حسن سيرهم في تعلمهم وعلى تهذيبهم وتأديبهم؛ إذ المؤانسة تقتضي المجانسة في العقائد والأخلاق؟

ولا شك أن هذا أفضل من التعلم في الخارج. الذي هو محفوف بالأخطار والأضرار، فهو خطر على العفاف والشرف، وعلى العقيدة والأخلاق لكثرة من يلقونه ويختلطون به ممن ليس على دينهم، وقد تؤثر فيهم مجالستهم ومؤانستهم مع صغر سنهم، وكون قلوبهم قابلة لما يلقى فيها من الخير والشر، ويا ليت شعري ما الذي يرجعون به وما الذي يستفيدونه من هؤلاء الأساتذة؟ فإنهم بمجرد الاختبار والتجربة يرجع أحدهم إلى أهله وهو ساذج من العلم والمعرفة، مزيف مغشوش بشهادة النجاح الكاذبة التي لا حقيقة لها سوى الغش بمحاولة تكثير سواد الطلاب عندهم وفي بلدهم، لما يكتسبونه على أثرهم من المادة، وإلا فإن حقيقة علمهم جهل.

وقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع، ولا يستعيذ إلا من الشر، إذ الغاذي شبيه بالمغتذي، فمن العناء العظيم استيلاد العقيم، والاستشفاء بالسقيم، فما أبعد البرء من طبيب داؤه من دوائه، وعلته من حميته.

إن من المعلوم أن الشباب يفضلون السفر إلى الخارج للتعلم مهما كانت مضرته وسوء عاقبته؛ لكونهم يفتخرون به ويرونه سبباً ووسيلة إلى رفع مرتباتهم، فصاروا يفضلونه على التعلم في بلادهم. وكان بدء فتح هذا الباب للسفر للخارج في البلدان العربية حينما ابتدئ بفتح المدارس فيها على اختلاف أنواعها وعلومها، ولم يكن لديهم في ذلك الوقت عدد كاف من المعلمين، ففتحوا هذا الباب للطلاب ليتعلموا شتى العلوم والفنون كي يستغنوا بعلمهم وتعليمهم عن الخارج، فاستمر هذا الفتح إلى الآن يقتدي الناس فيه بعضهم ببعض دون أن يفكروا في الاستغناء عنه.

وإن من الرأي السديد والأمر المفيد وجوب غلق هذا الباب عن سائر الطلاب؛ لحصول الكفاية التامة بالمعلمين من داخل البلدان العربية، والاستغناء بهم عن السفر للخارج بالكلية، فيا ليت شعري من الذي يفوز بالسبق إلى غلق هذا الباب الذي أحدث القلق والاضطراب في عقائد الطلاب، فإن خير الناس من يكون مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر.

وإن الحكام متى أحدثوا أمراً وشرعوا مشروعاً مما يتطلع إليه الطلاب ويؤملون نجاحهم على أثره برفع راتبهم ومرتبتهم وقبول دوائر الأعمال لهم، فإن من المعلوم أن الناس يندفعون إليه بشغف وشدة بحيث يطأ بعضهم أعقاب بعض في طلبه حتى ولو كان سيئ العاقبة في نفس الأمر والواقع، إن فعل الحكومة لهذا الشيء بهذه الصفة هو غاية في التشجيع والتنشيط للطلبة، لكنهم متى سدوا عنهم هذا الباب، وصرفوا عنه الطلاب باليأس منه، وفتحوا لهم ما هو أوفق وأرفق بهم وأصلح لهم في أمر دينهم ودنياهم ومجتمعهم فإنهم عند ذلك يسمحون ويحمدون عاقبة أمرهم، ثم ينشر الثناء والشكر لمن تسبب في سد هذا الباب بحيث يذكر به في حياته وبعد وفاته.

ولربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب

إن الحاكم يجب أن يكون بمثابة العقل المفكر والرأي المدبر لشؤون أمر رعيته وبلده، فيفتح أبواب العلم والتعليم لمختلف العلوم والفنون على مصاريعها، ويجلب

لهم ما يحتاجون إليه من صنائع وصناع وأطباء وأساتذة لسائر العلوم والفنون، ثم يوعز للطلاب بأن يتعلموا في بلادهم بين أهلهم وأقاربهم ليكون احتفافهم بأهلهم وبني جنسهم أعون على تهذيبهم وتأديبهم لاندماج الأخلاق بالأخلاق، ومتى عملت الحكومة عملها في غلق هذا الباب ولم تسمح بسفر أي طالب من الطلاب إلا من يسافر في عمل وتعلم شيء لا يمكن إدراك الحصول عليه في البلد، كعلم الطب أو شيء من علم الهندسة لاعتبار هذه من الأمور الاستثنائية إذ لابد من استثناء بعض التخصصات، ثم يحكم غلق الباب عن سفر الطلاب فيما عدا هذه الأمور الضرورية. ثم ينبغي للحكومة أن تصرف عنايتها واهتمامها للمتعلمين داخل البلاد بحيث لا يكون المتخرج في الخارج أرقى راتباً ورتبة من المتخرج في الداخل؛ لكون التفوق للخارج في الراتب والرتبة يوهن المتعلم في داخل البلد ويجعله يكسل عن مواصلة عمله في تعلمه.

ثم إن الحكومة تستفيد اختصار النفقات العظيمة من المرتبات وأجور الطائرات، كما تستفيد أيضاً طرح شيء كثير من العناء والشغل في سبيل سفرهم وذهابهم وإيابهم، وكما يستفيد أهل الطالب عدم الشغل بسفر ولدهم وتوفير ما كانوا يوافونه به من النفقات، فإن أكثر الطلاب لا يكفيه راتبه الشهري على كثرته بل لا يزال يلاحق أهله في إرسال زيادة على مرتبه، مع العلم أن مؤن المعيشة وأجور المساكن تزداد غلاء كل يوم خاصة في تلك البلدان.

فمتى عملت الحكومة عملها في سبيل التعلم في بلادها وصرفت مرتبات الطلاب الشهرية لهم في بلدهم، فإن الطالب يستفيد منها أكثر، كما أن أهله يستفيدون منها، وكما تستفيد البلاد من انتشار هذه الرواتب الكثيرة فيها، وكما تستفيد الحكومة شيئاً من الراحة عن العناء والشغل في دائرة أعمالها.

لقد عرفنا من أخلاق حكامنا الأكرمين رسوخ الحب والحفاء في قلوبهم لرعاياهم، وأنهم يحبون أن يوصلوا إليهم كل ما ينفعهم، ويدفعوا عنهم كل ما يضرهم بكل سبيل حسب استطاعتهم، وأنهم متى تنبهوا لمثل هذا الرأي السديد والأمر المفيد فأسفر لهم صبحه واتضحت لهم مصلحته وعموم منفعته في أمر

الدنيا والدين فإنهم يستقبلونه في صالحهم وصالح رعيتهم، ثم يتواصون ويتناصحون بالعمل به واعتماد تنفيذه؛ لاعتبار أنه حق يجب اتباعه، وما بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون.

غير أن مثل هذا الرأي قد لا يوافق مذاق الكثيرين من الطلاب وتنابذه نزعاتهم، ولا عجب فإن الحق لا يتمشى على رغبة الناس، وقد يكون الخير في ضمن ما يكرهون، وما أنا إلا صديقهم الحفي أخلص لهم نصحي حتى ولو كان مراً في حلوقهم، فإن الصديق المخلص هو من يجرع صديقه الدواء المر ليقيه من الوقوع في الضر.

فإن المر حين يَسُرُّ حلو وإن الحلو حين يضر مر

وإننا متى قابلنا بين المتخرجين في بلدان أوروبا وبين المتخرجين في الجامعات والكليات والمعاهد الشرعية بالبلدان الإسلامية فإننا نجد بينهم فرقاً واسعاً وبوناً شاسعاً في التفاوت في العلوم والفنون وفي العقائد والأخلاق؛ إذ المتخرج في بلدان أوروبا ليس معه سوى اللغة الإنجليزية، وما خسره من نسيان العلوم الشرعية أكثر مما استفاده، ولن تسمع عن أحد من المتخرجين بها شيئاً من النبوغ في شيء من العلوم التي تنفع؛ لكون عادم العلم لا يعطيه، ولأن علماء أوروبا الذين تخرج الطلاب من أبناء المسلمين عندهم جهلاء بكل العلوم النافعة مما يتعلق بالشرائع والأحكام وأمور الحلال والحرام وحتى علم البلاغة والبيان فهم يزيدون الطالب جهلاً على جهله.

أما المتخرج من الجامعات والمعاهد الإسلامية وكليات الشريعة فإننا نجد عند أحدهم ما يشفي ويكفي من العلوم والفنون سواء في التفسير أو الحديث أو السيرة أو التاريخ أو اللغة، فتجد عنده ثمرة من العلوم النافعة، كل على حسبه وعلى قدر موهبته من ربه، وخاصة القدامى الذين تخرجوا من مقدار ثلاثين أو عشرين سنة فإنهم أرقى في العلوم والمعرفة من المتخرجين في هذه السنين؛ لكونه قد تغير

أسلوب التعلم والتعليم في البلدان العربية كغيرها، وصاروا يسلخون ويمسخون الكتب والفنون حتى أبقوا المنهج شبه الرمز والصورة للعلوم والفنون، ومع هذا كله فإن أقل المتخرجين معرفة في البلدان العربية هم أرقى من المتخرجين في بلدان أوروبا. والحاصل أن الحكام متى أهملوا تربية الشباب فلم يهذبوهم على فعل الصلاح والتقى ولم يردعوهم عن مواقع الغي والردى، فإنهم سيعودون إلى أهلهم وهم نكبة ونقمة على العباد والبلاد، والدفع أيسر من الرفع.

وإن مما يؤكد الخطر ويوقعهم في الضرر على الأخلاق والعقائد كون أكثر هؤلاء الطلاب يسافرون إلى الخارج وهم صغار أسنان لم ترسخ في قلوبهم تعاليم دين الإسلام، وقبل أن يتربوا على العلم بفرائضه وفضائله تربية عملية، ثم التحقوا بالمدارس النصرانية واختلطوا بالمعلمين والمتعلمين بها فجالسوهم وأنسوا إليهم وانطبع فيهم شيء من أخلاقهم وملؤوا أفكارهم من الإلحاد وفساد الاعتقاد كجحود الرب والتكذيب بالقرآن والتكذيب بالرسول والتكذيب بالبعث بعد الموت والتكذيب بالجنة والنار، فلقنوهم هذه العقيدة على سبيل الصداقة فصادفت منهم قلباً خالياً فتمكنت، فرجعوا إلى بلادهم وهم يهرفون بما لا يعرفون، وناهيكم بالسذاجة وعدم الرسوخ في العلم والمعرفة فإن القاصرة عقولهم والناقصة علومهم ينقدح الشك في قلب أحدهم بأول عارض من شبهة، فيؤثر معهم هذا التضليل، فيزيغهم عن الحق وسواء السبيل، فيتبعون أساتذتهم في أسوأ العادات وترك العبادات.

ومما لا شك فيه أن إرسال أولادنا وبناتنا للتعليم في بلدان أوروبا والبلدان الشيوعية له مخاطره في تكوين عقولهم وله آثاره في بناء شخصيتهم.

فالطالب يجد نفسه يتلقى فلسفة الغرب المادية والعلمانية وعقيدته السيئة الخاصة به، ويتشبع من هذه الفلسفة ويعود إلى بلده بشخصية مختلفة تهدم ولا تبني، حيث إنه قد عاد بأفكار مغايرة لعقيدة أهل بلده وعاداتهم وتقاليدهم.

وهناك فرق بين نوعين من العلوم التي توجه أبناؤنا لتحصيلها، فالعلوم الإنسانية مثل الأدب والتاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية

والقانون، فهذه العلوم لا حاجة لأبنائنا في تحصيلها من علماء لا عقيدة لهم ولا أخلاق حيث إنهم يتأثرون بأفكارهم وميولهم ويشربون من موردهم من الفلسفات والآراء الهدامة التي تحكم كل القيم والآداب.

أما العلوم التطبيقية والعلمية البحتة كالطب والهندسة فإن سعيهم لاستكمالها يغدو وفق شروط معينة وضرورة ملحة.

ولسنا نقول ذلك ونطالب به إلا انطلاقاً من حرصنا على مستقبل شبابنا رجال المستقبل الذين يؤتمنون على تربية الأجيال المقبلة.

فالعائد من الخارج يأخذ مركزه القيادي والتربوي، ولا تقصر الدولة في إعطائه مكانته في قيادة البلاد والعباد في مجال التعليم والتصنيع أو العمل الإداري.

فإذا عاد إلينا بعقيدة ممسوخة وبأفكار تغاير مبادءنا وأخلاقنا ودیننا فإنه لا محالة سيؤثر في نفوس الكثيرين ويقودهم إلى المهالك.

ونحن نعلم أن مؤسسات الاستعمار ومراكز توجيهه تتلقى الطلاب والطالبات هناك وتحوطهم بكل وسائل الإغراء والفتنة من كل لون: الفكري والجنسي والنفسي، وقليل من ينجو من شرهم.

والصهيونية بألاعيبها وحيلها توقع كثيراً منهم في حبالها تحت بريق العلم والخداع وغير ذلك من النوادي الليلية التي يديرونها لجر أرجل هؤلاء الطلاب وصرفهم عن تلقي العلم المبتعث من أجله.

والبلدان الشيوعية الماركسية تحرص كل الحرص على تلقين المبتعثين من بلادنا أفكارهم وآراءهم وفلسفتهم المادية الملحدة فيعود المبتعث وهو ناقم على دينه وعادات أهله وتقاليدهم فيخرب ويهدم... وذلك جراء إرسالنا لأولادنا وتركهم في أحضانهم، وناهيك عن وسائل التدمير في هذه المجتمعات التي أصبح شرب الخمر والمخدرات فيها كتناول الخبز والماء، والاتصال بين الرجال والنساء سهلاً ميسراً.

ومن يمارس هذا الحرام يسهل قياده، ويعود مفقود الإحساس بالكرامة، ويفرط في كل شيء في سبيل شهوته ونزواته؛ إذ أن إدمان رؤيته للمنكرات يقوم مقام ارتكابها في سلب القلوب نور التمييز والإنكار؛ لأن المنكرات متى كثر على القلب ورودها وتكرر في العين شهودها ذهبت عظيمتها شيئاً فشيئاً إلى أن يراها الإنسان فلا يحس أنها منكرات، ولا يمر بفكره أنها معاص، وذلك بسبب سلب القلوب نور التمييز والإنكار على حد ما قيل إذا كثر الإمساس قل الإحساس، ولا حجة لمن يقول إن الطالب أو الطالبة لا يتغير ما دام متحصناً بالثقافة الإسلامية في بلده؛ لأنه مهما تحصن وتحصل له من ثقافة إسلامية فإنه في ظروف الغربة والضغوط والتأثيرات والإغراء في مجتمع متحلل لابد وأن يتأثر أو تتشوه عقليته.

وما حاجتنا إلى أن نلقي بفلذات أكبادنا في هذه المجتمعات التي هي غاية في مهالك الأخلاق، ونحن قادرون على تلقينهم العلوم في بلدهم وجلب القدرات العلمية إلى بلادنا بشروط توافق عقيدتنا وتقاليدنا ويكونون تحت بصرنا فنسلم من شرهم ونأمن عواقب أفكارهم.

أما سفر البنات الطالبات إلى الخارج فإنه أشد ضرراً وأكبر نكراً، لأننا وإن قلنا إن النساء في حاجة إلى العلم والأدب وتعلم سائر العلوم والفنون كالرجال، فهذا صحيح والعلم النافع مطلوب ومرغب فيه في حق الرجال والنساء، غير أن هذا العلم من الممكن تحصيلها له في بلدها بمراجعة الكتب والفنون وسائر المؤلفات، وبسؤال العلماء عن المشكلات، فإن هذا هو طريق حصول العلم للرجال والنساء.

فالراسخون في العلم والمتوسعون فيه إنما توصلوا إلى ما تحصلوا عليه بهذه الطريقة، فلماذا تترك المرأة هذا ثم تحرص ويحرص أهلها على سفرها وحدها الذي حرمه الشارع بقوله: "**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر يوماً وليلة إلا مع ذي محرم**" رواه البخاري ومسلم. خصوصاً السفر البعيد الذي تتعرض فيه إلى الأخطار والأضرار ثم إلى فتنتها والافتتان بها الناشئ عن وحدتها والخلوة

بها وعن اختلاطها بالرجال في الملاهي والمجتمعات وسائر الأحوال والأوقات، تقليداً لما يسمونه تحرير المرأة عن رق أهلها وزوجها، وهن ناقصات عقل ودين والمشبهة عقولهن بالقوارير في سرعة تكسرهن وميولهن، وليس من شأنها أن تطلب علماً يوصلها إلى سطح القمر بحيث لا تجده إلا في الخارج وما عداه فإنه موجود في بلدها بدون سفر؛ لهذا يحرم على حكام المسلمين تمكين النساء من السفر إلى الخارج، كما يحرم إعانتهم لهن في سبيل هذا السفر؛ لاعتبار أنه سفر معصية بلا شك، وبالله قل لي ماذا ينفع العائلة الحسيبة المسلمة من سفر ابنتها إلى المدارس النصرانية تتربى بأخلاقهم ومساوئ آدابهم وعوائدهم؟.

إن أكبر ما تستفيده هي اللغة الأجنبية التي لا يمكن أن تخاطب بها أمها ولا أباها ولا أخواتها، وإذا رجعت من سفرها إلى أهلها رجعت إليهم بغير الأخلاق والآداب التي يعرفونها عنها، فترى أهلها كأنهم عالم غير العالم الذي نشأت فيه، وتحمل في نفسها الكبر والازدراء لأهلها فتعيب عليهم كل ما يزاولونه من معيشتهم وأخلاقهم وآدابهم وعوائدهم، ثم تقع العداوة والتنافر بينها وبينهم في كل شيء، وغايتها أنها تبغض أهلها وأقاربها ويبغضونها.

وحتى الأزواج الأكفاء تعزف نفوسهم عن خطبتها والرغبة فيها؛ لعلمهم بأنها متبرجة ومتفرنجة لا تخضع لطاعة الزوج وتكلفه شيئاً من المشاق في السفر بها دائماً إلى البلدان الأجنبية، ومتى تقلدت عمل الوظيفة فإنها أبعد لها عن الزوج وعن تدبير شؤون بيته وعياله، أفلا يكون سفرها للتعلم على هذه الحالة شقاء وضلالة وقطعاً لأواصر الزوجية والعيال؟ وما تستفيده من مرتباتها فإنها ستكون أبعد عن أهلها ويتضخم به خبالها وعدم اعتدالها.

وإننا باعتبار أننا مسلمون على الحقيقة فإنه يجب علينا امتثال مأمورات دين الإسلام واجتناب منهياته، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تسافر المرأة يوماً وليلة إلا مع ذي محرم، ونهى أن يخلو الرجل بالمرأة، وقال: "**ما خلا رجل بامرأة إلا والشيطان**

ثالثهما". ونهى القرآن عن إبداء زينتهن للرجال، وهذا كله حاصل متيسر منها في سفرها فإنها تتزيى بزي نساء أهل تلك البلاد من التكشف وإبداء مفاتن جسمها غير مبالية بالحياء والستر، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأشياء لكونها كالمقدمات لما بعدها، كما في البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: "**العين تزني وزناها النظر، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**" فلا ينهى الشارع عن شيء إلا ومضرته واضحة ومفسدته راجحة.

والنبي ﷺ قال: "**الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته ومسؤول عن رعيته**". فلا أدري ما حجة هذا الرجل الذي جعله الله راعياً على أهل بيته متى سئل عن سفر ابنته لبلدان أوروبا؟ وهل يصدق عليه أنه قام بواجب الرعاية في أمانة تربية ابنته فحاطها بحفظه وصيانته حسب استطاعته وفاء بصدق أمانته وحسن رعايته أم ضيع ما استؤمن عليه، وفرط في رعايته، وقذف بابنته في هاوية الفتنة والافتتان بها، وتركها تتصرف كيف شاءت بدون مراقب ولا وازع؟

ومن ذا يثني الأصاغر عن مراد وقد جلس الأكابر في الزوايا

إنه لا ينبغي أن نحسن الظن بها والحالة هذه، بل يجب أن نحسن العمل برعاية حمايتهن عن مراتع الفتن، فإن من وقع في الشبهات وقع في الحرام.

وحسن ظنك بالأيام معجزة فظن شراً وكن منها على حذر

وكذايقال في الأئمة الذين جعلهم الله رعاة على عباده، بأنه يجب عليهم أن يغرسوا في نفوس رعاياهم التخلق بمحبة الفرائض والفضائل، وحمايتهم عن منكرات الأخلاق والرذائل باستعمال الأسباب والوسائل، فإن الوقاية خير من العلاج، والدفع أيسر من الرفع. أو لم يكن الأوفق لها ولأهلها أن تتعلم مبادئ العلوم والشريعة عند أهلها وفي مدارس بلدها لتستعين بالبيئة والمجتمع على تهذيبها وصيانتها وحسن تربيتها وحسن الظن بها، وحتى تكون في بيت أهلها وزوجها صالحة مصلحة، تعاملهم وتعاشرهم بالحفاء والوفاء بدون نفرة ولا جفاء، وحتى

تكون مثلاً صالحاً لأخواتها وأهل بيتها، وكاليد الكريمة لزوجها في إدارة شؤون بيتها وعيالها، فتعيش سيدة بيت وسعيدة عشيرة، ولا يوفق لهذا إلا خيار النساء عقلاً وأدباً وديناً.

إن تحويل النساء المسلمات عن أخلاقهن الإسلامية العربية يقع بتأثير أخلاق أرواح أجنبية غايتها تحويل المسلمات عن دينهن وجميل أخلاقهن إلى اتباع الأوروبيات وتقليدهن في عاداتهن، وكل ما ذكرنا من خطورته على العفاف والدين فإنه من البراهين التي لا مجال للجدل في صحتها.

إن النصارى لا يعدون الزنا جريمة، وإن الاختلاط بين الطلاب من الشباب والشابات واحتكاك بعضهم ببعض جنباً إلى جنب، وجريان الحديث والمزاح بينهم ثم المصاحبة والخلوة كما تستدعيه المجالسة والمؤانسة فإن هذا العمل ضار في ذاته، ومؤد إلى الفاحشة الكبرى في غايته وسوء عاقبته؛ لأنه يعد من أقوى الأسباب والوسائل لإفساد البنات المصونات، وتمكن الفساق من إغوائهن، فهل أنتم منتهون؟. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

فهذه نصيحتي لكم، والله خليفتي عليكم، وأستودع الله دينكم وأمانتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) سورة المائدة: ٩٢.

رسالة إلى .....

المسؤولين عن التعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى وزراء التربية والتعليم

وإلى مديري المعاهد والجامعات والمدرسين والمتعلمين

سلام الله ورحمته عليكم أجمعين.

أما بعد...

فإن المحبة الودية توجب علينا النصيحة الدينية، فإن الدين النصيحة لله ولدينه ولعباده المؤمنين.

وقد أوجب الله علينا بأن ننصح من ولاه الله شيئاً من أمرنا، وأنه من المعلوم عند كافة الناس العام منهم والخاص بأن وزارة التعليم قامت وتقوم بعمل كبير، تنفق فيه عزيز المال الكثير في محاولة إيصال النفع بالعلم ومحاربة الجهل عن الذكر والأنثى والصغير والكبير، لكنها بداعي الحاجة وعموم المصلحة تحتاج إلى رعاية وعناية مستأنفة من جديد فيما يتعلق بأمر الدين في توسيع حصته، وتكليف الطلاب بالقيام بفرائضه، والتخلق بآدابه وفضائله، وتربية النشء على محبته؛ لأن الدين هو عقيدة الإسلام، وهو بمثابة الروح لكل إنسان، فضياعه من أكبر الخسران، لأنه يهذب الأخلاق، ويطهر الأعراق، ويزيل الكفر والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، فهو رأس كل خير، كما أن عدم الدين أصل كل شر، وإنما تنجم الحوادث الفظيعة والجرائم الشنيعة من القتل والنهب وهتك الأعراض والسرقة وشرب الخمور والتوسع في فنون الفجور والشرور من العادمين للدين الذين لا يرجون عند الله ثواباً ولا يخافون عقاباً، فلا يبالون بما يفعلون؛ بخلاف المتدين بدين صحيح فإن دينه ينهاه؛ إذ الدين أعظم وازع إلى أفعال الطاعات، وأعظم رادع عن ارتكاب المنكرات.

ولا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

ولهذا يقال إن كل متدين متمدن، فإذا أردت أن تعرف فضل الدين وعموم نفعه وحصول الوقاية عن الشر بالتخلق به، ثم تعرف خسارة فقده والتخلق بضده فانظر إلى البلدان التي قوضت منها خيام الإسلام، وترك أهلها فرائض الصلاة والصيام، واستباحوا الجهر بالكفر والفسوق والعصيان، ثم انظر كيف حالهم وما دخل عليهم من النقص والجهل والكفر وفساد الأخلاق والعقائد والأعمال، حتى صاروا بمثابة البهائم يتهارجون في الطرقات لا يعرفون صياماً ولا صلاة، ولا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون عن قبيح ولا يهتدون إلى حق، قد ضرب الله قلوب بعضهم ببعض وأكثرهم فاسقون.

إن صلاح التعليم ينجم عن صلاح الرأس والرئيس، ومن تضم منصة التدريس، فكل إناء ينضح بما فيه، وعادم الخير لا يعطيه، فمتى صلح التعليم صلح العمل وحسنت النتيجة، ومتى ساء التعليم ساء العمل وساءت النتيجة.

وإن الأمراء والوزراء والرؤساء ومجلس الشورى كل هؤلاء بمثابة المرابطين دون ثغر دينهم ووطنهم، يحمونه من دخول الإلحاد وتسرب الفساد إلى البلاد والأولاد؛ لاعتبار أنهم متكاتفون متكافلون على إيصال المنافع ودفع المضار، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، يأخذون على أيدي سفهائهم ويأطرونهم على الحق أطراً، أي يلزمونهم به إلزاماً، فمتى قصر هؤلاء في حماية دينهم ووطنهم وأهملوا أولادهم فلم يردعوهم عما يضرهم، وتركوا الخمور تُجلب إلى بلادهم، والحوانيت تفتح لبيعها بحيث تكون في متناول كل يد من كل أحد، وصار مآل أمرهم هو التلاوم فيما بينهم بدون أن يناصحوا من ولاه الله أمرهم، فإنه بذلك يتحقق خراب البلاد وفساد العباد وخاصة النساء والأولاد؛ بحيث تنطبع أخلاق السوء والفساد فيهم، ومتى كانت الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا حسيب.

فالعلم بأحكام شرائع الدين ثم تطبيق العمل بها هو مما يكسب حصول العلم والتوفيق فيه، وخاصة المحافظة على الصلاة جماعة في المدرسة متى دخل وقت الفريضة وهم في دوام الدراسة، فقام الطلاب والأساتذة والفراشون فأذّنوا

بالصلاة ثم أقاموها، وتقدم بهم أمراؤهم فصلوها جماعة، فإن المحافظة على الصلاة هي من أكبر ما يستعان به على تهذيب أخلاق البنين والبنات، لأنه لا إسلام ولا دين إلا بالعمل، فالعمل بشرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام هو الذي يحقق الإسلام ويصدقه، كما روى الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ قال: "**الإسلام علانية والإيمان في القلب**". معنى كون الإسلام علانية أن المسلم على الحقيقة لابد أن يظهر إسلامه علانية للناس بحيث يرونه يصلي مع المصلين، ويصوم مع الصائمين، ويؤدي زكاة ماله إلى الفقراء والمساكين، ويميل بمحبته وموالاته ونصرته إلى أهل الدين، فيظهر بذلك إسلامه علانية للناس بحيث يشهدون له بموجبه، والناس شهداء الله في أرضه.

أما من يتسمى بالإسلام وهو لا يصلى ولا يصوم ولا يدين دين الحق فلا شك أن إسلامه كاذب بالحس والوجدان والسنة والقرآن، ومن ادعى بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

فالتكاتف على العمل بشرائع الإسلام هو الذي يوحّد المسلمين ويؤلف بين قلوبهم، ويصلح ذات بينهم، ويجعلهم مستعدين للنصر على عدوهم، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن الله قد أعزكم بالإسلام، ومهما تطلبتم العز في غيره يذلكم الله".

وقد ورد أن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وقد أخرجه البخاري في التاريخ. من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: "**ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**" وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد موت رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنما كنا نعرفكم ورسول الله حي ينزل عليه الوحي إذ ينبئنا الله من أخباركم، وإن رسول الله قد انطلق به، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نعرفكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا منكم خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه، ومن أظهر لنا منكم شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه.

فالذي يتسمى بالإسلام وهو لا يصلي ولا يصوم ولا يحرم ما حرم الله ورسوله من الربا والزنا والخمر لا شك أن إسلامه لا حقيقة له، بل هو إسلام باللسان يكذبه الحس والوجدان والسنة والقرآن، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

لأن للإسلام صوى ومناراً كمنار الطريق يعرف به صاحبه كما ورد بذلك الحديث، فعقيدة الإسلام أنه قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، فيفرح بذكره، ويندفع إلى القيام بفرضه ونفله طيبة بذلك نفسه منشرحاً به صدره.

وإذا حلت الهداية قلب شخص نشطت في مرادها الأجسام

ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً، أي: ضيقاً بذكر الإسلام حرجاً من أمره ونهيه وصلاته وصيامه وسائر حدوده وأحكامه، يألف البطالة وينفر عن الطاعة في الله فنسيه، وقد حذر الله المؤمنين أن يكونوا أمثاله، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2] أي أنساهم مصالح أنفسهم الدينية والدنيوية.

*****

(١) سورة البقرة: ٨-٩ .

(٢) سورة الحشر: ١٩ .

العبادات الشرعية وما تُكسبه من الأخلاق المرضية

إن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه، وركب فيهم العقول ليعرفوه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ليشكروه.

والعبادة وإن كان قد يرى بعض الناس من الكسالى أن فيها نوع ثقل عليهم كعبادة الصلاة والزكاة والصيام لكنها حسنة العاقبة؛ لأن الحق ثقيل على النفوس لكنه مريء، كما أن الباطل خفيف على النفوس لكنه وبئ، فقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] فالمؤمنون الذين يعتقدون أن الله سيثيبهم على حسناتهم وصلاتهم فإن الصلاة تكون سهلة عليهم، بل هي لذة أرواحهم ونعيم أجسامهم، وكذلك عبادة الصيام وسائر عبادات الإسلام.

والعبادات على اختلاف أنواعها هي تنزيل الحكيم العليم، شرعها وأوجبها من يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأنها هي أسباب سعادتهم الدينية والدنيوية؛ لأن الله سبحانه لا يوجب شيئاً من الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام إلا ومصلحته راجحة ومنفعته واضحة، ولا يحرم شيئاً من المحرمات كالربا والزنا وشرب الخمر إلا ومضرته واضحة ومفسدته راجحة.

فهو سبحانه لم يكن ليذر الناس مهملين بدون أمر ولا نهي، ولم يكن ليكلهم إلى عقولهم وآرائهم ولا إلى عاداتهم وتقليد آبائهم، بل أرسل رسله وأنزل كتبه وبين للناس ما أنزل إليهم من الشرائع والأحكام، فأوجب الفرائض وسنَّ النوافل وبين للناس الحلال والحرام، فحاجة الناس إلى العلم بالواجبات ثم العمل بها هي حاجة ضرورية أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن العبادات الشرعية تغرس في النفوس محبة الرب والتقرب إليه بطاعته.

---

(١) سورة البقرة: ٤٥-٤٦ .

ثم صلاح الروح والقلب اللذين تترتب عليهما السعادة وحسن الاستقامة فليس للناس صلاح ولا فلاح ولا سعادة ولا استقامة إلا بالعقيدة الصحيحة التي تصدر عنها الأعمال الصالحة من المحافظة على الفرائض والفضائل واجتناب منكرات الأخلاق والرذائل، وبذلك يسمى المؤمن "عبد الله" لكونه قد أطاع الله في أمره واجتنب نهيه وعبده بما شرع له؛ إذ الفرق شاسع بين من يسيرون في حياتهم على عقيدة صحيحة وبين من يسيرون على غير عقيدة أو على عقيدة باطلة.

ثم إن العبادات الشرعية جعلها الله بمثابة الفرقان بين المسلمين والكفار والمتقين والفجار، وبمثابة محك التمحيص لصحة الإيمان بها يعرف صادق الإسلام من بين أهل الكفر والفسوق والعصيان؛ لأن الله سبحانه لم يكن ليذر الناس على حسب ما يدعونه بألسنتهم بدون أن يختبرهم على صحة نياتهم بحيث يقول أحدهم أنا مؤمن أنا مسلم، فاقتضت حكمته بأن يختبرهم ويمتحن صحة إيمانهم بالأعمال أي: بالفرائض والنواهي التي تحقق صحة إيمانهم، يقول الله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1]، أي: لا يختبرون ولا يمتحنون على صحة ما يدعون - ولقد فتنا الذين من قبلهم - أي: من الأمم السابقة اختبرناهم بالأوامر والنواهي الشرعية - فليعلمن الله الذين صدقوا - أي: في دعوى إيمانهم حيث قاموا بواجبات دينهم فصدق قولهم فعلُهم فحافظوا على ربهم - وليعلمن الكاذبين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ولم تنقد للعمل به جوارحهم، وكان حظهم من الإسلام هو محض التسمي به باللسان والانتساب إليه بدون عمل ولا انقياد لحكمه، وهذا الإيمان يكذبه الحس والوجدان والسنة والقرآن، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

ومنها أن العبادات الشرعية ترفع المسلم عن مشابهة الحيوانات البهيمية، فالقوم الذين تركوا فرائض ربهم ،ونسوا أمر آخرتهم، وصرفوا جل عقولهم وجل

(١) سورة العنكبوت: ٢-٣ .

أعمالهم وجل اهتمامهم للعمل لدنياهم واتباع شهوات بطونهم وفروجهم قد رضوا لأنفسهم بأن يعيشوا في الدنيا عيشة البهائم، ليس عليهم أمر ولا نهي ولا حلال ولا حرام ولا صلة ولا صيام ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1].

ولأجله جعلهم الله شراً من الأنعام فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[2] فلم يقتصر سبحانه على مساواتهم بالأنعام بل جعلهم أضل.

فإذا أردت أن تعرف قيمة شأن العبادات الشرعية وما تُكسبه من الفضائل الخلقية والفوائد الاجتماعية فانظر إلى البلدان العربية التي ترك أكثر أهلها العبادات الشرعية، ثم انظر كيف حالهم وما دخل عليهم من النقص والجهل والكفر وفساد الأخلاق والعقائد والأعمال، حتى صاروا بمثابة البهائم يتهارجون في الطرقات، ويتسافلون تسافل الحيوانات، لا يعرفون صياماً ولا صلاة، ولا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح ولا يهتدون إلى حق، قد ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، تشابهت قلوبهم وأكثرهم فاسقون.

عمي العيون عموا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليدا

*****

(١) سورة محمد: ١٢ .

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩ .

الصلاة هي آكد العبادات

إن من شرط صحة الصلاة الطهور، فهو مفتاح الصلاة، كما ثبت في الحديث عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "**مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم**" رواه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب، فلا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ، وقد فرض الوضوء ليلة الإسراء مع فرض الصلاة، وسمي وضوءاً لأنه مأخوذ من الوضاءة وهي النظافة؛ لأن دين الإسلام دين النظافة يأمر بالتجمل والنظافة عند القيام للصلاة والمثول بين يدي الله تعالى ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾[1] أي عند كل صلاة، والوضوء من الزينة الواجبة، والحكمة فيه أنه ينشط الأعضاء عند القيام للصلاة، ويكسبها القوة والفرح، ويزيل عنها العجز والكسل والفتور، ويطرد النوم والنعاس، ويترتب عليه تكفير الخطايا، عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: "**استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**" رواه مالك وأحمد وابن ماجه.

أما الصلاة فإنها آكد العبادات، وهي من أكبر ما يستعان بها على حسن تربية البنين والبنات؛ لأنها تقوم اعوجاجهم، وتصلح فسادهم، وتذكرهم بالله الكريم الأكبر، وتصدهم عن الفحشاء والمنكر، فهي أم الفضائل والناهية عن منكرات الأخلاق والرذائل، تغرس في القلب محبة الرب والخضوع لطاعته، وبمحافظة الإنسان عليها ومزاولته بالاستمرار على فعلها يعود حبها ملكة راسخة في قلبه، تحببه إلى ربه وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته، فهي أول ما افترض الله من العبادات، وهي آخر ما يفقد منها، فليس بعد ذهابها إسلام ولا دين. وهي خمس صلوات مفرقة بين خمسة أوقات؛ لئلا تطول مدة غفلة العبد عن الرب.

---

(١) سورة الأعراف: ٣١ .

سميت صلاة لكونها صلة بين العبد وربه، فالمصلي متصل بربه موصول ببره وفضله وكرمه، وقيل لأجل اشتمالها على الدعاء سميت في اللغة صلاة.

فهي عمود دين الإسلام، وأمانة الله في عنق كل إنسان، كما أنها الفارقة بين الكفر والإيمان، فمن جحد وجوبها فهو كافر بإجماع علماء الإسلام، ومن أقر بوجوبها وتركها عمداً فهو كافر بنص السنة والقرآن، فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر أن النبي ﷺ قال: "**بين الرجل وبين الشرك و الكفر ترك الصلاة**".

وروى بريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد كفر**" رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن حبان وقال الترمذي: حسن صحيح، ولا نقول إنه كفر دون كفر كما يقوله بعضهم، بل هو الكفر المخرج عن ملة الإسلام، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين.

وكان السلف الصالح يسمونها الميزان، فإذا أرادوا أن يبحثوا عن دين إنسان سألوا عن صلاته، فإن حُدثوا بأنه يحافظ على الصلاة علموا بأنه ذو دين، وإن حُدثوا بأنه لا حظ له في الصلاة علموا بأنه لا دين له؛ لأنها آخر ما يفقد من دين الإنسان، ومن لا دين له جدير بكل شر، بعيد عن كل خير، وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه.

قال محمد بن نصر المروزي: سمعت إسحاق يقول: صح عن النبي ﷺ أن تارك الصلاة كافر، وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ أن تارك الصلاة عمداً من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر. وقال الحافظ أبو محمد عبد العظيم المنذري: قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة متعمداً لتركها حتى يخرج وقتها.. منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء ومن غير الصحابة ابن حنبل وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن المبارك والنخعي والحكم بن عيينة وأيوب السختياني وأبو داود الطيالسي وأبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب وغيرهم ذكره المنذري في الترهيب عن ترك الصلاة[1].

(١) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري (١/ ٢٩٠) باب الترهيب من ترك الصلاة تعمداً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمداً من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لسخط الله وخزيه وعقوبته في الدنيا والآخرة[1].

قال: وأفتى سفيان الثوري وأبو عمرو الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وحماد بن زيد ووكيع بن الجراح ومالك بن أنس والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وأصحابهم بأنه يقتل متى تركها عمداً من غير عذر ودعي إليها وقال لا أصلي" انتهى.

وحسبك أنها في تكفيرها للخطايا قد وصفها رسول الله ﷺ بالنهر الغمر - أي الكثير - الذي يغتسل منه الإنسان كل يوم خمس مرات فهو لا يُبقي من درنه شيئاً، وكذلك الصلاة، وأن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

وبما أنها من آكد العبادات فإنها من أقوى ما يستعان بها على حسن تربية البنين والبنات؛ لأنها تذكرهم بالله الكريم الأكبر، وتصدهم عن الفحشاء والمنكر، ولأجله أوصى النبي ﷺ بها أمته ليأمروا أولادهم بالصلاة لسبع سنين، ويضربوهم على تركها لعشر سنين؛ لأن تربيتهم عليها في حالة الصغر هي بمثابة النقش في الحجر، ولأنهم بمزاولتهم عليها والأخذ بأيديهم إليها يعود حبها ملكة راسخة في قلب أحدهم تحببه إلى ربه وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته، يقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

*****

(١) انظر أول رسالة: الصلاة وحكم تاركها للإمام ابن قيم الجوزية.
(٢) سورة طه: ١٣٢ .

الصلاة جماعة

شرع الإسلام اجتماع المسلمين في الصلاة بنظام خاص وتساوٍ في الصفوف وتراص، وقد جعلت صفوف المصلين كصفوف الملائكة لقول النبي ﷺ: "**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها**"، قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: "**يتمون الصف الأول فالأول ويتراصون في الصف**". وشرع بناء المساجد للاجتماع للصلاة، كما شرع الأذان على المآذن العالية لإبلاغ الناس دخول وقت الصلاة ليتأهبوا بالحضور إليها، وورد الوعيد الشديد فيمن سمع النداء بالصلاة ثم لا يجيب، وأن التخلف عن الصلاة وعدم إجابة النداء إليها أنه من صفة المنافقين، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**﴾[1] فنفى الله عنهم العقل الصحيح لعدم إجابتهم لنداء الصلاة الذي هو نداء بالفلاح والفوز والنجاح، لأنه إنما يسمى العقل عقلاً لكونه يعقل عن الله مراده أي: أمره ونهيه، أو من أجل أنه يعقل صاحبه على المحافظة على الفرائض والفضائل، ويردعه عن منكرات الأخلاق والرذائل كما قيل:

والعقل في معنى العقال ولفظه فالخير يعقل والسفاه يحله

فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "**من سمع النداء ثم لم يأت فلا صلاة له إلا من عذر**". رواه ابن حبان والحاكم وإسناده على شرط مسلم لكن رجح بعضهم وقفه، وروى الإمام أحمد عن معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن الجفاء والكفر والنفاق فيمن سمع منادي الله ينادي بالصلاة فلا يجيبه**"، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال: "**رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة في الجماعة إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجلُ يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف**".

وقد همَّ رسول الله ﷺ بإحراق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة لولا ما اشتملت عليه البيوت من الذرية والنساء الذين لا تجب عليهم الجماعة،

(١) سورة المائدة: ٥٨ .

واستأذنه ابن أم مكتوم وهو أعمى وبينه وبين المسجد نخل وواد على أن يصلي في بيته، فقال له: "**هل تسمع النداء بالصلاة؟**" قال: نعم، قال "**فأجب**"، كما ثبت في صحيح مسلم فلم يسمح له بالتخلف عن الجماعة.

وحسبك أن الله أمر بالصلاة جماعة في حال القتال وحمل السلاح وتقابل الصفوف، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ**﴾[1] وقد ترجم العلماء لهذا في كتب الحديث والفقه بـ "باب صلاة الخوف".

ولم يحفظ عن رسول الله ﷺ أنه تخلف عن الجماعة مرة واحدة إلا في حالة مرضه الذي توفي فيه.

وهذه الأدلة تتعاضد على وجوب صلاة الجماعة إذا لم يكن ثمة عذر يبيح التخلف، وهذا الوجوب يثاب فاعله ويعاقب تاركه، كما أنه الظاهر من مذهب الإمام أحمد وكثير من المحدثين، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله. قال ناظم المفردات.

في كل فرض تجب الجماعة وقال باشتراطها جماعة

إن الصلاة مع الجماعة يترتب عليها حكم عديدة، ومصالح مفيدة أهمها:

الخروج من عهدة من قال بوجوبها، كما أنه الراجح بالأدلة الواضحة،

ومنها: حصول الفضل المترتب على فعلها مع الجماعة.

ومنها: تنشيط الأجسام والقلوب على الاجتماع لها حيث إن بعض الناس ينشط البعض على فعلها، وملاقاة الرجال فيه تقوية لأجسامهم وتلقيح لأفهامهم.

ومنها: التمرن على استمرار فعلها مع الجماعة حتى تكون محبتها ملكة راسخة في قلب أحدهم تحببه إلى ربه، وتقربه من خلقه، وتصلح له أمر دنياه وآخرته، حتى تكون في نفسه لذة وسروراً، ومتى فاتته هذه الفريضة مع الجماعة علم أنه قد خسر شيئاً كبيراً من الفضيلة والأجر.

---

(١) سورة النساء: ١٠٢ .

ومنها: أن التهاون في فعلها مع الجماعة مدعاة إلى التهاون بها ثم إلى تركها.

ومنها: حصول الفضل المترتب على التخطي إليها حيث يكتب له بكل خطوة حسنة، ويمحى عنه بكل خطوة سيئة.

ومنها: حصول التعارف والتآلف بين المسلمين المصلين بحيث يلقى الرجل أخاه في صلاة الجماعة كل يوم خمس مرات فينجذب قلبه لمحبته والعطف عليه، فيسلم عليه إذا لقيه، ويسأل عنه إذا افتقده، ويعوده في مرضه، وقد قيل إن الحكمة في مشروعية صلاة الجماعة هو حصول التعارف والتآلف بين المسلمين المصلين وإزالة الإحن والشحناء عنهم؛ لأن التقارب بالأبدان مدعاة إلى التقارب بين القلوب، والتباعد بالأبدان مدعاة إلى التنافر بين القلوب، على حد ما قيل:

وإن تدن مني تدن منك مودتي وإن تنأ عني تجدني عنك نائيا

ولأجله قال ﷺ: "**من صلى الفجر في جماعة كان من ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة كان في ذمة الله حتى يصبح**"، ولأن هذين الوقتين هما أثقل صلاة على المنافقين، وقال: "**من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام الليل كله**" رواه مسلم من حديث عثمان ابن عفان.

والحاصل أن الصلاة مع الجماعة هي من لذائذ الحياة، من ذاق منها عرف، ومن حرم انحرف، كما قال النبي ﷺ: "**وجعلت قرة عيني في الصلاة**".

إن أعظم الناس بركة وأشرفهم مزية ومنزلة الرجل يكون في المجلس أو في المدرسة فيسمع النداء بالصلاة فيقوم إليها فرحاً، ويأمر من عنده من الجلساء والزملاء والتلاميذ بأن يقوموا إلى الصلاة معه فيصلون جماعة، يعلوهم النور والوقار على وجوههم، كل من رآهم ذكر الله عند رؤيتهم، أولئك الميامين على أنفسهم والميامين على جلسائهم وتلامذتهم، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وبضد هؤلاء قوم يكونون في المجالس أو في المدارس أو في النوادي والمقاهي فيسمعون النداء بالصلاة فلا يجيبون، ألسنتهم لاغية، وقلوبهم لاهية، قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون، فهؤلاء هم المشائيم على أنفسهم والمشائيم على جلسائهم وتلامذتهم.

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام

*****

صلاة الجماعة
في المعاهد والجامعات ومدارس البنين والبنات

إن مما يجب أن ننصح به وأن نوصي بعمله هو إقامة الصلوات جماعة في المعاهد والجامعات ومدارس البنين والبنات، فمتى دخل عليهم وقت فريضة من فرائض الصلاة كفرض الظهر مثلاً أو فرض المغرب أو العشاء في الذين يدرسون بالليل فإنه يجب أن يُؤذن لهم أحدُهم ويؤمهم أقرؤهم؛ لأن فعل هذه الصلاة جماعة هو من أكبر ما يستعان به على حسن تهذيب أخلاق البنين والبنات، كما أنها من أكبر ما يستعان بها عل حصول العلم وكشف المشكلات وسائر أمور الحياة، وكان الصحابة إذا حزبهم أمر من أمور الحياة أو وقعوا في شدة من الشدات فزعوا إلى الصلاة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[1].

فالمتخفي أو المتخلف عن الصلاة مع الجماعة يعتبر خائناً لدينه خائناً لأمانة ربه، لا سيما إذا كان هذا المتخلف من الأساتذة المعلمين، فإن تخلفه يعتبر تعليماً منه ترك الصلاة وعدم الاهتمام بها، فلا يصلح أن يكون معلماً للأولاد؛ لأن الخائن لعمود دينه وإهانة ربه جدير بأن يخون أمته وأهل ملته، فهو جدير بكل شر، بعيد عن كل خير، وعادم الخير لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه؛ وقد حذر النبي ﷺ من مثل هذا خشية الاقتداء به فقال: "**ما بال أقوام يتخلفون عن الصلاة فيتخلف بتخلفهم آخرون**". وعن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**" رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه.

إن الحكومات على اختلافها أصبحت تعاني أشد المشقات في علاج الجرائم لكثرتها واختلاف أنواعها، ويواصلون الأعمال في محاولة تقليلها فضلاً عن رفعها،

(١) سورة البقرة: ٤٥ .

لكنها لم يزدد نارها إلا استعاراً، وإنما تنشأ الجرائم الفظيعة والفواحش الشنيعة من العادمين للدين التاركين للصلاة، ولو وفقوا لدوائها الوحيد وعلاجها المفيد لوجدوه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي المحافظة على الصلاة التي هي أم الفضائل الناهية عن منكرات الأخلاق والرذائل، ثم في إقامة الحدود الشرعية التي جعلها الله بمثابة الزواجر عن ارتكاب منكرات الأخلاق والرذائل، فإن هذه تكفي عن مئات الألوف من الجنود والعساكر.

إن صلاة الأساتذة والطلاب جماعة يترتب عليها مصلحة كبيرة لسائر المعلمين والمتعلمين؛ إذ هي نوع من التعليم الفعلي الذي أسست له المعارف وفتحت له أبواب المدارس، فلا ينبغي أن يلاحظ تمرين الطلاب على تعلم فضول أمور الحياة من الرياضيات والجغرافيات ويهمل جانب تمرينهم على فعل الصلاة من سائر العبادات؛ إذ هذه أولى بالعناية والاهتمام؛ لأن الصلاة من أكبر ما يستعان بها على أمور الحياة وعلى حصول العلم وحل المشكلات، والله تعالى يقول: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[1] وكان الصحابة والسلف يستعينون على حفظ العلم بالعمل به، ويقول أحدهم: أصلي بكم كما رأيت رسول الله يصلي بنا، ويقول الآخر: أتوضأ كما رأيت رسول الله يتوضأ، ويقول ابن مسعود، كنا إذا تعلمنا عشر آيات لم نتجاوزهن حتى نتعلم معانيهن والعمل بهن؛ فيتعلمون العلم والعمل معاً.

أما تفريط المدارس في صلاة الجماعة، وتهاون المدرسين بها، وعدم مبالاتهم بمن يصلي وبمن لا يصلي بحيث يدخل عليهم وقت الصلاة وهم في دوام الدراسة ثم ينفرون ويتفرقون قبل أن يصلوا جماعة، فلا شك أن هذا الفعل بهذه الصفة هو نوع تعليم للأعمال السيئة، فهو مما يجعل هذه الفريضة تفوت على الصغار والكبار حتى يكون تركها عادة مستمرة وخلقاً لهم، يشب عليها صغيرهم ويهرم عليها كبيرهم، حتى لا يرونها منكراً كما هو معروف من صفات التاركين للصلاة؛ لكون التارك للصلاة مع الجماعة يندر أن يصليها في بيته، وإن التماهل في فعلها

(١) سورة البقرة: ٤٥ .

مدعاة إلى التهاون بها ثم إلى تركها، وهكذا المعاصي يقود بعضها إلى بعض، وهي بريد الكفر.

فيا معشر شباب المسلمين، ويا معشر المسلمين والمتعلمين إن الله سبحانه شرفكم بالإسلام وفضلكم به على سائر الأنام، متى قمتم بالعمل به على التمام، وإن الإسلام ليس هو محض التسمي به باللسان والانتساب إليه بالعنوان، ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فاعملوا بإسلامكم تعرفوا به، وادعوا الناس إليه تكونوا من خير أهله، فإنه لا إسلام بدون العمل، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله؛ فمن واجبكم محافظتكم على صلاتكم في الجماعة، وأن تحثوا من لديكم عليها فإنها من أعظم المظاهر الدينية، فمتى رأيتم الرجل يحافظ على واجباته في صلاته فاشهدوا له بالإيمان، ومتى رأيتم الرجل يتخلف عن الصلاة بدون عذر مشروع فاشهدوا عليه بالنفاق، ومتى سافر أحدكم إلى الأقطار الأجنبية لحاجة التعلم أو لحاجة العلاج أو لحاجة التجارة أو لأي حاجة من الحاجات فمن واجبه أن يظهر إسلامه في أي مكان يحل به، فيدعو إلى دينه وإلى طاعة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا حضرت فريضة من فرائض الصلاة أمر من عنده من زملائه وجلسائه بأن يصلوا جماعة حتى يكون مباركاً على نفسه ومباركاً على جلسائه، أما إذا صرفتم جل عقولكم وجل أعمالكم وجل اهتمامكم للعمل لدنياكم واتباع شهوات بطونكم وفروجكم، وتركتم فرائض ربكم، ونسيتم أمر آخرتكم، صرتم مثالاً للمعايب ورشقاً لنبال المثالب، وسيسجل التاريخ مساوئكم التي خالفتم بها سيرة سلفكم الصالحين، الذين شرفوا عليكم بتمسكهم بالدين وطاعة رب العالمين، فلا أدري من أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟.

*****

تخصيص موضع لأداء صلاة الجماعة في المدرسة

إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد أسست المدارس لتعليم الطلاب أمر دينهم ودنياهم، ثم تمرينهم على العمل بما ينفعهم، وسبق لنا حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "**ما من ثلاثة فما فوق في قرية ولا بدوٍ لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**" رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

ومن المعلوم أن المدرسة التي تشتمل على عدد كبير من المعلمين والمتعلمين والفراشين أنه يشملها معنى الحديث، فمتى لم يقيموا الصلاة جماعة فإنه ينطبق عليهم هذا الوصف السيئ من استحواذ الشيطان عليهم - أي غلبته واستيلائه - كما قال تعالى: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[1] ومن المعلوم عند الناس العام منهم والخاص أن وزارة التربية والتعليم قامت وتقوم بأعمال كبيرة وتنفق في سبيل التعلم والتعليم النفقات الكثيرة لإصلاح أحوال الطلاب وإزالة الجهل عنهم وسوء الآداب. وقد سبق أن قلنا إن الصلاة في الجماعات هي من أكبر ما يستعان بها على حسن تهذيب أخلاق البنين والبنات؛ لأنها تقوم اعوجاجهم وتصلح فسادهم وتذكرهم بربهم الكريم الأكبر، وتصدهم عن الفحشاء والمنكر، وأنها من أكبر ما يستعان بها على أمور الحياة وتسهيل العلم وكشف المشكلات، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[2] فمتى كان الأمر بهذه الصفة فإنه يجب بذل المال في تمهيد مكان لصلاة الجماعة في المدرسة، لما يترتب على ذلك من صلاح الأحوال والأعمال والعيال، ومن بنى لله مسجداً يحتسب ثوابه عند الله بنى الله له قصراً في الجنة.

---

(١) سورة المجادلة: ١٩ .

(٢) سورة البقرة: ١٥٣ .

لهذا يجب على وزارة التربية والتعليم التي من شأنها إصلاح أحوال المعلمين والمتعلمين بأن تحتسب تأسيس مكان لصلاة الجماعة في كل مدرسة يسع الطلاب والأساتذة، ولو على صفة الغرفة الواسعة أي بدون محراب ولا منارة، ويصدق عليه تسميته بالمسجد، وتحتسب وزارة التربية والتعليم بالمبادرة بتأسيسه باعتبار أنه عمل خيري يبقى شرف ذكره وعظيم أجره لمؤسسه والمساعد عليه بحيث يذكر به ويشكر عليه في حياته وبعد وفاته.

وإن جُعل المكان على صفة المسجد في كل صفاته فهو أفضل؛ لئلا يصرف عن وقفيته إلى غيره وقبل تمام بنائه، فإنه لا ينبغي للأساتذة والطلاب أن يهملوا صلاة الجماعة، فكل مواضع المدرسة تصلح لصلاة الجماعة إما في إحدى غرفها، أو في الأروقة المحيطة بالغرف؛ ولم يبق سوى فرشها بالحصر أو البسط للصلاة، على أنها تصح بدون ذلك فقد سجد النبي ﷺ على الطين، وعلى كل حال فإنها متى خلصت النية وقويت العزيمة فإن كل شيء سهل ميسر وحاضر عتيد، والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

*****

الرد السديد في
بيان بُطلان محاضرة عبد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، ونستعين بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فقد أهدى إلي أحد الأخلاء شريطاً يتضمن محاضرة ألقاها عبد الحميد الأنصاري أحد المعلمين في قطر في شأن المرأة وما يجب أن تفعل في المجتمع، فألفيته منشوراً يشتمل على منكر من القول وزور، ويجادل فيه بالباطل ليدحض به الحق، فلو اقتصر على شأن المرأة وحدها والخوض في موضوعها لكان أسهل، لكنه تعدى عنها إلى أساطين العلماء الأجلاء كالإمام الذهبي في كتابه "الكبائر" والإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين" وسفيان الثوري أحد رجال البخاري، فجعل يسمهم بالنقص وعدم العلم والمعرفة وكونهم متمسكين بأقوال الجاهلية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾[1] لكنه يتحامل على هؤلاء العلماء بالنقص ليزيل به الاحتجاج بأقوالهم في كل ما هو حجة عليه، وأعظم من هذا كله كونه يدعي أن الرسول ﷺ قد مات قبل إكمال الدين وهو مناقض لقوله سبحانه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[2] وليس بعد التمام إلا النقص.

إذا تم شيء بدا نقصه توقع زوال أمر إذا قيل تم

ثم إن هذا الأفاك الأثيم يرى أن كافة العلماء ومنهم الصحابة أنهم ليسوا على شيء، وكذا الفقهاء، فهو لم يُبْقِ بسلاطة لسانه أحداً من العلماء سالماً..

ثم إنه استقر أمره على قول منكر وزور وهو أنه يوجب على المسلمين كافة بأن يخرجوا نساءهم وبناتهم إلى المجتمعات والشركات وسائر أمور الحياة، ففيه المخالفة لما يأمر الله به، فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

---

(١) سورة الكهف: ٥ .

(٢) سورة المائدة: ٣ .

الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[1] وقد اختصم علي وفاطمة عند رسول الله ﷺ فيما تزاوله فاطمة من أعمال البيت الذي شق عليها مزاولته فحكم رسول الله ﷺ على أن علياً عليه جلب ما تحتاج من خارج البيت، وعلى فاطمة خدمة داخل البيت من مهنة عملها وشأن عيالها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾[2] فهذا هو محض العدل والإنصاف الذي يقطع النزاع، ويعيد الخلاف إلى مواقع الإجماع.

إن تربية الأولاد مع كثرتهم ومزاولة خدمة البيت ليس من الشأن إليهن؛ إذ أنه يذهب بطراوة المرأة ونشاط جسمها، حتى قيل لن ينشأ عُمَرٌ إلا وقد أكل عُمُراً - أي من شباب أم الأولاد - يقول سبحانه: ﴿قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾[3] فهذا والله الخطاب اللطيف والتهذيب الظريف، يأمر الله جميع نساء المؤمنين الحرائر العفيفات بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، والجلباب هو الملحفة الواسعة التي تشبه الرداء بحيث تغطي بها جميع بدنها فلا تبقي سوى عينها التي تبصر بها الطريق، ويعلم الناس بأنها من الحرائر المصونات فيحترمونها، لذلك وهذا معنى ﴿أن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾.

إن أشرف حالة للمرأة أن تكون قاعدة في قعر بيتها، ملازمة لعملها من خياطتها ونظافة بيتها وعيالها، لا يكثر خروجها لأن ثقل الرِّجْل جلال وكثرة الدخول والخروج مهانة، وربما يعرضها إلى التهمة وإلى فتنتها والافتتان بها، إن خرجت مختفية في هيئة رثة غير متطيبة تسلك المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق.

وقد أكثر هذا المحاضر من ترديد الكلام السخيف في شأن ستر المرأة وجهها وزعم أنه ينتج النقص في عقلها، وهو الناقص لا محالة، فإن ستر المرأة وجهها كان معروفاً في زمن الصحابة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب الإماء المملوكات إذا

(١) سورة الأحزاب: ٣٣ .
(٢) سورة الأنعام: ١١٥ .
(٣) سورة الأحزاب: ٥٩ .

خمرن وجوههن، ويقول: "لا تشبهن بالحرائر"، مما يدل على أن الحرائر زمن الصحابة قد تعودن ستر وجوههن بالخمار، فمنهن من تضع النقاب، ومنهن من تضع البرقع كما قيل:

إذا بارك الله في ملبس فلا بارك الله في البرقع

يريك عيون المها مسبلا ويكشف عن منظر أشنع

لأن عندهم أن المرأة الجميلة بلبس البرقع والنقاب تكون غير جميلة إذا خلعته، ولهذا يقولون في المثل: "كل بطالة بطالة" يعنون به: إن كل امرأة جميلة بلبس النقاب أو "البطولة" تكون غير جميلة إذا كشفته، وقالت عائشة أم المؤمنين: كنا في سفر الحج مع رسول الله ﷺ نكشف وجوهنا في الخلاء، فإذا مر بنا أحد من الرجال سدلت إحدانا خمارها على وجهها.

ثم إن النظر إلى محاسن المرأة هو سهم من سهام إبليس كما ثبت بذلك الحديث، فمن نظر إلى محاسن المرأة ثم صرف بصره عنها أورثه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه؛ لأن أكثر الحوادث مبدؤها من النظرة، فالنظرة تكون في مبدئها نظرة، ثم تكون خطرة في القلب، ثم تكون خطوة بالرجل، ثم تكون خطيئة. وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: "**العين تزني وزناها النظر، والرجل تزني وزناها الخطوة، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**". ويرحم الله نساء الأنصار لما نزل قوله سبحانه ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...**﴾[1] فسرها ابن عباس بما ظهر منها من وجه وكفين، وفسرها ابن مسعود بأطراف الثياب، لهذا عمدت نساء الأنصار إلى الكثيف من الثياب فشققنها على رؤوسهن فخرجن وهن لا يعرفهن أحد من التستر.

إن نساء المسلمين منذ بعث الله محمداً رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا وهن يشهدن الصلاة مع الرجال، لكنهن بمعزل عنهم لقول النبي ﷺ: "**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وبيوتهن خير لهن**" وكان الزبير بن العوام زمن فتنة الصحابة في

(١) سورة النور: ٣١ .

موقعة الجمل وصفين يحب من زوجته بأن تصلي في بيتها لكنه يتحاشى النهي حذراً من معصية رسول الله ﷺ، فرأى من حيلته أن يقف بطريق أسماء - زوجته - لاصقاً جنباً بالجدار، فخرجت أسماء لصلاة العشاء. فتقدم إليها وجسّها باللُبس فصرخت ثم رجعت إلى بيتها، ولما انتهت صلاة العشاء جاء وسأل أسماء لِمَ لم تخرج للصلاة فقالت: نعم كنا نخرج والناس ناس وقد انقلب الناس أبلاس"، وهذه سياسة حكيمة. حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل لهن باباً في المسجد لا يدخل ولا يخرج منه إلا النساء من حرصه على صيانتهن، وكذلك كانت النساء يجاهدن مع الرجال، وكانت هند زوجة أبي سفيان وصويحباتها معهن سيوف وخشب خلف الرجال يزجُّونهم إلى ساحة القتال في معركة القادسية، وربما شجعن الرجال بشيء من الشِّعر. فكن لا يمكن أحداً من الرجال ينصرف عن القتال إلا زجرنه وصحن به؛ وغزت أم حرام بنت ملحان مع زوجها عبادة بن الصامت قبرص فسقطت عن دابتها فماتت رضي الله عنها؛ ونساء المسلمين يشتغلن مع أزواجهن في الحرث والزرع وغرس الأشجار المتنوعة وتربية الحيوانات وأقلها الدجاج فما دخل رسول الله ﷺ بيت أحد من الفقراء إلا أمر باقتنائهم الدجاج.

إن هذا المحاضر الضال يريد منا شيئاً من التكشف العمومي للنساء حتى يتمتع بشهوته بالنظر إليهن، يريد بذلك الفتنة نظير إخوانه من المنافقين الذين قال الله فيهم ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[1] والمنافقون في هذا الزمان هم من أشر المنافقين الذين نزل فيهم القرآن، لأن أولئك يخفون نفاقهم وهؤلاء يظهرون.

إن الله سبحانه أمر في كتابه بغض البصر لكونه رائد الفرج، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

(١) سورة آل عمران: ١١٨ .

زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1] فهذا والله الخطاب اللطيف والتهذيب الظريف؛ إذ أنه من المعلوم عند الخاص والعام أن المرأة إذا دخلت في سلك الأعمال مع الرجال فإنها لن تخلو من الانفراد وحدها، ولن تخلو من صديق ينفرد بها في مكان خالٍ فيقع المحظور، وما خلا رجل بامرأة إلا والشيطان ثالثهما، ولهذا حرم رسول الله ﷺ سفر المرأة يوماً وليلة إلا مع ذي محرم.

إن الرجال الناظرين إلى النساء مثل السباع تطوف باللحمان

إن لم تصن تلك اللحوم أسودها أُكلت بلا عوض ولا أثمان

فهذا هو ما يبغيه هذا المحاضر من نسائنا، وإن أراد فتنة أبينا.. أبينا.

إن هذا الرجل الأفَّاك قد بالغ بجد وجهد إلى أن تخرج النساء الخفرات التقيات إلى الشوارع والأسواق والمشاركة في العمل في الشركات حتى يكن بمثابة قطعان من البقر، تكشف المرأة يديها إلى المرفق ورجليها إلى نصف الساق، وتمشي وهي متعطرة بالطيب وحاسرة الرأس وعليها الأصباغ والزينة من الحلي، وهذا هو غاية ما يتمنى هذا الكاتب ويدعو إليه بنات المسلمين، وهو غاية في السفه والفساد.

وقد أجاز الشرع الحنيف كشف الوجه عند الحاجة كحاجة الشهادة عليها أو القضاء، أو في حالة نظر الخاطب إليها، فقد أمر النبي ﷺ بذلك وقال: "**إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**". وقال لرجل خطب امرأة: "**هل نظرت إليها**"؟ فقال: لا، فقال: "**اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**" - أي يؤلف - وقد أخذ بعض الأفاضل في هذه السنين العمل بهذه السنّة فمتى طالب الخاطب النظر إلى مخطوبته فإنهم يمكنونه من ذلك فيفتحون له الباب ويسهلون له الجناب، فيدخل إليها وهي جالسة مع أمها، فتقوم المخطوبة فتصب إلى خطيبها القهوة، ثم ينصرف راغباً أو راهباً، أما قول بعض الفقهاء: "ولا بأس بكشف وجهها عند أمن الفتنة" فهذا قول معقول ومقبول، فالعفيفة المصونة متى صمد الشاب لرؤيتها فصرفت بصرها عنه فإن هذا عين

(١) سورة النور: ٣٠-٣١.

الصواب، وحسبنا تنويه القرآن بفضيلة غض البصر من الرجل ومن المرأة. أما المرأة الكبيرة التي انقطع عنها حيضها فقد أبيح لها أن تكشف وجهها وتلقي عنها الثياب المحتشمة مثل العباءة والثياب الزائدة على الدراعة وتمشي مع الناس بدراعة وخمار مع اجتنابها للزينة وما يدعو للنظر إليها، فإن لكل ساقطة لاقطة، يقول سبحانه: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾[1].

وفي الختام فقد أشار بعض الأصحاب علي في شأن هذا الكاتب قائلاً: إن كلامه ساقط عند كل أحد لأنه عديم علم، وعديم عقل، وعديم أدب، وكل هذه الأوصاف منطبقة عليه ومعروفة من حشو كلامه، وأنه لا يستحق الرد عليه، فأجبته بأن الباطل لا يقوى إلا في حالة رقدة الحق عنه، وأن رد الباطل بالحق هو مما يقلل فشو الباطل وعدم انتشاره، وردنا هذا هو من العلم النافع الذي يرجى أن ينتفع به كل من سمع به، وسبحان من لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي الختام فإنه لو لم يكن عندنا في هذا الموضوع سوى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾[2] لكفانا، فقد أمر الله نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، والجلباب هو الملحفة يشبه الرداء أو يشبه العباءة تضعه المرأة فوق خمار رأسها، فإذا مر بها أحد من الأجانب سدلته على وجهها بحيث لا تُبقي من وجهها سوى العين التي تبصر بها الطريق، ويعلم الناس بأنها حرة فيحترمونها، وهذا معنى البرقع والنقاب كما في شعر الخفاجي في معشوقته ليلى الأخيلية حيث قال:

وكنت إذا ما زرتُ ليلى تبرقعت وقد رابني منها الغداة سفورُها.

وذلك أنها لم تسفر بوجهها إلاّ في حالة غضبها عليه حين زارها والناس حاضرون ينظرون إليه، فأرادت إبعاده عنها، وقد عرَفَ ذلك، وأنها إنما كشفت وجهها في حالة غضبها عليه.

---

(١) سورة النور: ٦٠ . (٢) سورة الأحزاب: ٥٩ .

الأحكام الشرعية
ومُنافاتها لِلقوانين الوَضْعِيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق من أراد هدايته للإسلام، فانقادت للعمل به الجوارح والأركان، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة من قال ربي الله ثم استقام. وأشهد أن محمداً نبيه ورسوله سيد الأنام.

اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه البررة الكرام وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله - سبحانه - أنزل كتابه المبين، وبعث رسوله محمداً الصادق الأمين رحمة للعالمين وهدى للناس أجمعين.. فجاء بدين كامل وشرع شامل صالح لكل زمان ومكان، قد نظم حياة الناس أحسن نظام بالحكمة والمصلحة والعدل والإحسان، فلو أن الناس آمنوا بتعاليمه وانقادوا لحكمه وتنظيمه ووقفوا عند حدوده ومراسيمه لصاروا به سعداء، وقد سماه الله شفاء لعلاج عللهم وإصلاح مجتمعهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾(١).

كما سماه: رحمة للعالمين - أي الخلق أجمعين - فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢). كما أنه دين الخلق أجمعين.. فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾(٣). ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾(٤). وكتب سبحانه الرحمة والفلاح الذي هو الفوز والنجاح بخير الدنيا والآخرة لمن تمسك بهديه وحكم بشريعته.. فقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ

---

(١) سورة فصلت: ٤٤ .
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧ .
(٣) سورة سبأ: ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف: ١٥٨ .

عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

فبما أن محمداً رسول الله وخاتم المرسلين، فكذلك شريعته هي خاتمة الشرائع، فلا يجوز لأحد أن يحكم أو يتحاكم إلى غير شريعته، ولما رأى النبي ﷺ في يد عمر قطعة من التوراة قال له: "**يا عمر لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ولو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي**".

كما قيل من أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - متى نزل في آخر الزمان فإنه يحكم بشريعة محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو معدود من أمته.

وقد نصب سبحانه شريعة الإسلام لجميع الناس في الدنيا بمثابة الحكم القسط تقطع عن الناس النزاع وتعيد خلافهم إلى مواقع الإجماع وهو القرآن والسنة. يقول الله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٢).

وقد اتفق العلماء على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته، فهما ميزان القسط الذي توزن به الأقوال والأعمال.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٣)، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤).

إن لسلفنا الصالح من الصحابة والتابعين وسائر علماء المسلمين الفخر العميم والفضل العظيم، حيث بنوا للناس مجداً شامخاً من فقه دين الشريعة

(١) سورة الأعراف: ١٥٦-١٥٧ .
(٢) سورة النساء: ٥٩ .
(٣) سورة الأحزاب: ٣٦ .
(٤) سورة النور: ٥٠ .

الإسلامية المستنبط من نصوص الكتاب والسنة، وما تشتمل عليه من العقائد والقواعد والأحكام وأمور الحلال والحرام، لقد بذلوا في تصحيحها وتمحيصها غاية جهدهم ونهاية وسعهم على حسب المناسبات... فاستنبطوا الأحكام، وبينوا للناس الحلال والحرام، وكشفوا عن قلوبهم سجوف البدع والضلال والأوهام.

وقد قام بوضعها وأسس نظمها عدول أعلام وجهابذة علماء الإسلام، فأفنوا أعمارهم في سبيل الحفاظ على فقه هذا الدين، وعلى صيانة هذا الكنز الثمين، وعلى تهذيبه وترتيبه وتبويبه، بحيث يدخل على كل قضية من بابها، ويقف على حقيقة العلم بها من وسائلها وأسبابها، فانتفع الناس بعلمهم، وحمدوا عاقبة أمرهم، وذلك من لدن عصر نزول القرآن إلى هذا الزمان، فنجح به كل من جرب العمل بموجبه... فهو كفيل بحل مشاكل العالم، ما وقع في هذا الزمان وما سيقع بعد أزمان، فلا تقع مشكلة ذات أهمية من مشكلات العصر إلا وفي الشريعة الإسلامية طريق حلها وبيان الهدى من الضلال فيها، كما أنه لا يأتي صاحب باطل بحجة باطلة إلا وفي الشريعة الإسلامية ما يدحضها ويبين بطلانها.

ولقد مر على هذه الأنظمة الشرعية أكثر من أربعة عشر قرناً وكل علماء المذاهب الأربعة متفقون على العمل بأصول عقائدها وقواعدها وفرائضها وفضائلها وحدودها وحلالها وحرامها، وليس فيها مادة واحدة يمكن حذفها، ولا موضع واحد يحتاج إلى تعديل أو تبديل أو تغيير أو إزالة شيء من قوانين الشرع من مكانه أو إلغائه للاستغناء عنه.. فهي باقية ما بقي الدهر، صالحة لكل زمان ومكان، لا تتغير بتغير الزمان والأحوال.

بينما القوانين الوضعية قد وضعت مراراً وغيرت مراراً تمشياً مع رغبة أهلها وتطوير أحوالهم وتغيير عاداتهم، وقد اعترف بذلك علماؤهم وقد أصبحوا اليوم فوضى حيارى ليس لهم دين يعصمهم ولا شريعة تنظمهم، ويتمنى الكثير منهم الرجوع إلى شريعة الإسلام لتنقذهم من مهالكهم وفوضى مدنيتهم... ولا يزال ينكشف لهم عاماً بعد عام ضرورة حاجتهم إلى العمل بشريعة الإسلام، كما عملوا

بها في إباحة الطلاق الذي هو محرم في شريعتهم ويطالب بعضهم الآن بإباحة تعدد الزوجات، وكذا الحكم بتحريم الخمر رجوعاً إلى شريعة الإسلام، وكانوا يرونه مباحاً في عقيدتهم، وسيكون لهذا التداعي تجاوب ولو بعد حين.

ولما ظهرت بدعة الشيوعية الاشتراكية، ضج من الخوف منها جميع الدول الكبرى، مثل: إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وأمريكا، خوفاً من أن تقوض تجاراتهم ومصانعهم وشركاتهم.. فأصدرت إنجلترا قراراً في إحدى مجلاتها قائلة: إنه لا يستطيع أحد أن يقوم في وجه هذه الفكرة مع كثرة أنصارها وأعوانها سوى شريعة القرآن الذي فيه ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[1]، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[2].

وإنه يجب تعميم إدخال هذه الفقرات في سائر المدارس النصرانية حتى يتعلمها الشباب والشابات.. كما أنهم في هذا الزمان لما ابتلوا بالكوارث والفتن وانتشار الفواحش من القتل والنهب والسرقات وهتك الأعراض واختطاف الناس والأولاد وحرق الحوانيت المملوءة بالأموال والتجارات، أخذوا ينادون بشريعة الإسلام ويقولون: سلام الله على دين الإسلام الذي يحكم بقتل القاتل، وقطع يد السارق، والضرب على أيدي الجناة، ويجعل الناس آمنين في دورهم وأوطانهم... لأن الناس اليوم يتخبطون في ظلمات من الشقاوة وفنون من الجاهلية والهمجية، وقد غرقوا في بحار التحلل وعبادة المال، وبعدوا كل البعد عن ساحل السلامة ووسائل الراحة والنجاة.

لكون دين الإسلام هو دين البشرية كلهم، عربهم وعجمهم على اختلاف أديانهم، فهو الكفيل بعلاج عللهم وإصلاح مجتمعهم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

إن الشريعة الإسلامية هي تنزيل الحكيم العليم، شرعها وأوجبها من يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأنها هي أسباب سعادتهم في

---

(١) سورة النحل: ٧١ .

(٢) سورة الزخرف: ٣٢ .

دنياهم وآخرتهم؛ لأنها تهذب الأخلاق، وتطهر الأعراق، وتزيل الكفر والشقاق والنفاق، ومدارها على جلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها... فهي مبنية على حفظ الدين والأنفس والأموال والعقول والأعراض.

ومتى استعرض العاقل المقاصد العالية التي هدى إليها القرآن والسنة والتي هي معرض اهتمام العلماء والعقلاء في هذه الأزمنة يجدها تدور على إصلاح الأفراد وإصلاح المجتمع وإصلاح العقائد وتطهيرها عن الشرك والبدع والخرافات، وإصلاح العبادات وإصلاح الأخلاق والمعاملات وإصلاح الشؤون الزوجية بما يسمونه "الأحوال الشخصية" وإصلاح نظام القضاء والسياسة الحكيمة وإصلاح الشؤون المالية ومراعاة تثميرها بحسب تدبيرها وعدم تبذيرها وتوسعة التجارات ورقيها في سبيل حلها مع أداء واجباتها.. وإصلاح الشؤون الحربية واحترام العهود ووجوب الوفاء بها، وفضل الصدق والأمانة وتحرير العقول والأفكار في سبيل ما ينفعها ودفع ما يضرها ومحاربة الجرائم على اختلاف أنواعها.

كما شرع القصاص والحد والتعزير لمصلحة استتباب الأمن وحصول السعادة والراحة لجميع المواطنين الذين يعيشون في ظل الشريعة الإسلامية وينتفعون ويتمتعون بالعمل بها.

وقد دخلت هذه الأعمال كلها في فقه الإسلام من كتاب الله العظيم وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فهذا هو دستور المسلمين وقانون فرائضهم وفضائلهم ومنهاج سيرتهم وسيرهم، يستضيئون فيه بنور الله ويحكمون بما أنزل الله.. يقول سبحانه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

(١) سورة المائدة: ٤٩ - ٥٠ .

لقد مكث المسلمون أربعة عشر قرناً والمحاكم الشرعية مفتوحة في مشارق الدنيا ومغاربها، يتحاكم جميع الناس إليها، مسلمهم وكافرهم، ويقومون راضين بحكمها لاعتبار أنها محاكم شرعية عدلية دينية ومحاكم راحة ورحمة، فهم يعتزون بها حتى إن بعض ملوك المسلمين يسمون أنفسهم عبيداً للشريعة.

كما شكا رجل إلى صلاح الدين الأيوبي خصماً له. فقال صلاح الدين: لقد نصبنا المحاكم الشرعية لتحكم بينك وبين خصمك، لك أو عليك، وما أنا إلا عبد للشريعة أنفذ ما تحكم به.

ومن المشاهد بالاعتبار أن للقضاء الشرعي سيطرة فعالة على قلوب الناس، وأن الناس يخضعون وينقادون لحكم الشرع لعلمهم واعتقادهم أنه شريعة دينهم فله القوة الفعالة والوازع القوي في نفوس الناس، بحيث يوقف كل أحد عند حده، ويقنعه بحقه، ويقوم الخصم اللدود سامعاً مطيعاً له.

فمتى قيل للخصم اللجوج: هذا حكم الله ورسوله وقف على حده وقنع بحقه وعلم بأنه لا مجال للجدل معه، فلا بد للناس من التشريع الإلهي الذي يفوق سائر ما وضعه الناس من الأنظمة والقوانين، لكون علم الشريعة وأحكامها محيطاً وكفيلاً بحل جميع مشاكل العالم في حاضرهم ومستقبلهم.

أما النظم البشرية، فمهما بلغت من إدراك وتفوق، فإنها لن تكفل للبشر سعادتهم، ولا حصول الراحة والأمان والاطمئنان لهم، ولا حل مشاكلهم على الوجه الأكمل، بل هي على الضد من ذلك، فإنها بسير أعمالها وقانون أحكامها تنشئ المشاكل وتسهل ارتكاب الجرائم من أجل أنه ليس فيها قصاص ولا حد ولا تعزير، ما عدا السجن الذي يعده أكثر المجرمين بمثابة الراحة عن الكد والتعب... فالمحاكم الشرعية المبنية على أساس من العلم والعقل والعدل والسياسة الحكيمة هي أكبر معين للحاكم والأمير على سياسة مملكته وسيادة رعيته لكونه يتقي بها عذل العوام والإنحاء عليه بالملام فيما يتعلق بالقضاء والأحكام، فيسود بين الناس الأمان والاطمئنان.

إنه قد يوجد في القاضي الشرعي شيء من النقص أو التقصير، إما في العلم أو الحلم أو الجنف في الحكم لكونه بشراً يعتريه من النقص ما يعتري سائر البشر... إذ ليس من شرطه الكمال وأي الناس المهذب. فمن الحزم وفعل أولي العزم استبدال من هو أصلح منه به لكون التبديل قد يقتضي التعديل.

أما إبدال شريعة القوانين بشريعة الدين، فإنه يعد من الضلال المبين ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]. وقد سميت الأحكام بالشرائع واحدها شريعة لقول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وإنما سميت "محاكم شرعية" لكون الناس يشرعونها: أي يشربون منها ثم ينصرفون راضين بها، وقد أعطي القاضي الشرعي سعة وفرجاً عن الوقوع في الحرج في الحكم متى بذل غاية جهده ووسعه في حكمه، فإن له مع إصابته أجرين ومع خطئه أجراً، كما ثبت ذلك في القرآن في قضية حكم داود وسليمان، وكما ثبت ذلك في الصحيحين، والحمد لله الذي جعل في الأمر سعة.

ومن عادة القاضي الشرعي أنه يحتسب راحة الناس بقطع النزاع عنهم، فمتى تبين له الحق وأسفر له صبحه حكم به بدون تأخير وبدون أن تأخذه في الحكم به لومة لائم. وعليه مراعاة تقوى الله فيما تولاه، وأن لا يطمع شريف في حيفه وجوره، ولا ييأس ضعيف من عدله، ويقيد كل قضية في السجل لحفظها والرجوع لها وقت الحاجة إليها.

ومن عادة القاضي الشرعي أنه لا يأخذ على قضائه أجراً إلا ما جعل له من بيت المال، ولا ينبغي أن يمنعه قضاؤه وحكمه بالأمس متى تبين له خطؤه، وأن الحق في خلافه أن يرجع عنه، ويستأنف الحكم من جديد فيعطي صاحب الحق حقه حتى ولو بعد حلف المحكوم له، فإن اليمين لا تزيل الحق عن مستحقه، وإنما تقطع

(١) سورة المائدة: ٥٠ .
(٢) سورة الجاثية: ١٨ .

النزاع في وقته، بخلاف نظم محاكم القوانين الوضعية، فإنها مؤسسة على تطويل الدعوى وتمديدها بين نقض وإبرام وحكم واستئناف، وقد دخل فيها المحامون الذين يصنعون الدعاوى ويحبون أن تتصل الخصومة ولا تنفصم. وعلى إثر هذا التعليل والتمليل وصرف المال في سبيل اتصال الدعوى سئم الناس منهم، واشتد بغضهم لها، وصار صاحب الحق يتخلى عن حقه الواضح استبقاء لراحته وتوفير ماله.

إن القضاء الشرعي يتناول الحكم في أمر الدين وفي الأنفس وفي الأموال وفي الأعراض والعقول مع ملاءمتها لكل بيئة وكل زمان ومكان؛ لأن شريعة الإسلام وما تشتمل عليه من الأحكام وأمور الحلال والحرام هي شريعة البشر كلهم، عربهم وعجمهم مسلمهم وكافرهم، وما كان هذا الدين ليتحمل أمانة رسالة البشر كلهم إلا وهو يحمل في تعاليمه وأحكامه وقواعده وعقائده ما يجعله كفيلاً وحقيقاً بهذه التسمية لينتهي بالناس إلى أن يكونوا آمنين على دينهم آمنين على أنفسهم، آمنين على أهلهم وأعراضهم آمنين على أموالهم.

أما محاكم القوانين الوضعية، فإنها من البلاء المبين على الناس أجمعين؛ لأنها محض آراء قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله من الزنا والربا والقمار وشرب الخمر ولا يدينون دين الحق، وهي مبنية على عزل الدين عن الدولة، وعلى كون الرضا شريعة المتعاقدين.. فهي تبيح للناس ما حرم الله عليهم من أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وكما تبيح الزنا الواقع بالتراضي إذا لم يطالب زوجها أو أحد أقاربها بمنعها.

وكما تبيح شرب الخمر إذا لم يتعد بالسكر على أحد، ومعنى إباحتها لهذه الجرائم: أنها لا تعاقبه عليها بطريق الحكم، بل تحميه وتحكم بصحة ربا النسيئة الذي اتفق الكتاب والسنة وأجمع علماء الأمة على تحريمه، فهي تلزم بدفعه إلى المرابي من بنك وغيره. وتبيح لكل ملحد وكافر بأن يجهر بعقيدته غير محجور عليه في رأيه ويحمونه على ذلك كله، وبذلك تنتشر المذاهب الهدامة والعقائد الباطلة في كل بلد تسودها المحاكم القانونية.

كما ظهرت وانتشرت عقيدة البهائية والقاديانية في الهند تحت حماية الإنجليز بدعوى أنها من حرية الرأي التي يحترمونها. هذا هو الأصل في قانون فرنسا الذي يقتبس منه الناس قوانين الأحكام في البلدان العربية، وقد يحذف منه شيء ويزاد شيء من الموافقة لشريعة الإسلام، لكنها بمجملها لا تتقيد بحكم شريعة الدين ولا تبالي بمخالفته.

كما أنها لا تعاقب الجناة مهما كبرت الجناية أو صغرت إلا بالسجن.. لهذا تكثر الحوادث في كل بلد تسوده المحاكم القانونية حتى تغص السجون بالجناة.. من أنواع القتل والنهب والسرقة وهتك الأعراض واختطاف النساء والأولاد وتحريق الحوانيت المملوءة بالأموال، ويقع بهم ما حذرهم منه النبي ﷺ حيث قال: "**إنه ما نقض قوم عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديداً**".

وهذا بمثابة الدليل القاطع والبرهان الساطع الذي يشهد به الحس والواقع. يقول الله سبحانه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1].

وليعتبر العاقل بالبلدان التي أغلقت فيها محاكم شريعة الإسلام، واستبدل أهلها بها محاكم القوانين، ولينظر كيف حال أهلها، وما دخل عليهم من النقص والجهل والكفر وفساد الأخلاق والعقائد والأعمال، حتى صاروا بمثابة البهائم يتهارجون في الطرقات لا يعرفون صياماً ولا صلاة ولا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ولا يمتنعون من قبيح ولا يهتدون إلى الحق.

ثم لينظر إلى البلدان التي يحكم فيها بشريعة الإسلام، يجدها آخذة بنصيب وافر من الأمن والإيمان والسعادة والاطمئنان، يتمتعون بعيشة راضية مرضية وأخلاق كريمة زكية، قد فازوا وحصلوا على ما وعدهم به ربهم في قوله سبحانه: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ**﴾[2].

---

(١) سورة فصلت: ٥٣ .

(٢) سورة طه: ١٢٣ .

ثم إن المحاكم القانونية إنما فتحت في البلدان العربية في القرن العشرين الميلادي، الذي ضعف فيه العلم، وساد فيه الجهل، وامتد سلطان الإنجليز على البلدان العربية، ففتحوا هذه المحاكم على كره من أهلها، وألزموا الناس بالتحاكم إليها، فأصاب الناس من أكدارها وعموم أضرارها ما لا يحتسبون، والضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها.

إن أعداء الإسلام قد شوهوا سمعة شريعة الإسلام، وشنعوا عليها بحكمها بالقصاص بقتل القاتل عند طلب ورثه الدم لذلك. وقطع يد السارق وجلد شارب الخمر والزاني والقاذف، والتعزير بالجلد على الجرائم تطهيراً للفاعل وزجراً له عن معاودة جريمته وعظة للناس.. فإن خير الناس من وعظ بغيره، وهذه الأعمال تعتبر من محاسن الإسلام وعموم مصالحه.

فهم ينسبون إقامة الحد إلى القساوة والوحشية، وقد جعلها الله تطهيراً ورحمة؛ لأن "من لا يكرم نفسه لا يكرم". ومن يهن الله فما له من مكرم، والمضار الفردية تغتفر في ضمن المصالح العمومية، أشبه بتجريح الطبيب في سبيل صحة المصاب بمرض.. كما قيل:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأبدان بالعلل

فهؤلاء الذين يعيبون القضاء الشرعي بإقامة الحدود هم قوم يزنون الأشياء بموازين عائلة غير عادلة، ويحكمون عليها بعقول معتلة ومختلة لا تميز بين المحاسن والمساوئ، ولا بين المصالح والمفاسد، وهم القوم الذين صنعوا القنبلة الذرية التي تقضي بفناء الملايين من الآدميين من بين شيوخ ونساء وصبيان وحوامل وبهائم في سبيل الخضوع لحكم جائر.. فهذه هي القساوة والوحشية.

وقد اقتضت سنة الله في خلقه التي تظهر جلية لكل دارس لتاريخ الأمم وأسباب رقيها وسقوطها وانهيارها، أن الدولة التي تصر على المنكرات والمعاصي، وتظهر علانية بدون إنكار منهم أن الله يهلكها في الدنيا بالضعف والشقاق وإثارة الفتن وخراب العمران فتضعف قوتها، وتزول منعتها، ويتمزق شمل ملكها، ويستولي عليها من يطمع فيها، ويذيقها عذاب الذل والهوان.

إن مما يقوي الرجاء، وينشط الأمل؛ حينما نسمع بأن حكام المسلمين، والزعماء المفكرين في حالة المناسبات للاجتماعات التي يعقدونها للتذاكر في شؤون أممهم وعلاج عللهم وإصلاح مجتمعهم ومحاربة الجرائم فيما بينهم، نراهم يتفق رأيهم على كلمة واحدة لا يختلف فيها اثنان منهم.. وهي أن الأمر الذي فلَّ حدَّهم، وشتت شملهم، وألقى العداوة بينهم، هو تقصيرهم بالقيام بواجبات دينهم، وخروجهم عن نظام شريعة ربهم وسنة نبيهم، وأن الرأي السديد والأمر المفيد هو اعتصامهم بدين الله.. دين الإسلام، وتمسكهم بأخلاقه وآدابه والمحافظة على فرائضه وفضائله والتحاكم إلى شريعته.. فإن هذا هو الكفيل بإصلاح دينهم ودنياهم، فهم يتواصون ويتناصحون بهذا، ولم يبق سوى التنفيذ، إذ لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وسيكون لهذا التداعي تجاوب ولو بعد حين.ولا أدري من الذي يحوز قصب السبق ويحظى بالفخر والفضل في التقدم إلى العمل به كي يقتدي به نظراؤه؟... والفضل للمتقدم.

فإن وقاية الحكومة ورقيها واعتزازها بالحكم الشرعي الذي يحفظ رعاياها عن التعدي على الحقوق وانتهاك الحدود إنه أعظم من تسلحها بالعدد الكثير من الحرس والجنود؛ إذ القضاء الشرعي هو من أكبر ما تستعين به الحكومة على سياسة مملكتها وسيادة رعيتها واستقرار الأمن والهدوء في مجتمعها، وتقليل الجرائم في حدود ممالكها؛ لكون الناس يقتدي بعضهم ببعض في الخير والشر وفي الصلاح والفساد، فيسود الأمن والاطمئنان بين جميع الناس فيما بينهم.

ولا ينبغي أن يفوتنا التنبيه بمقتضى ما يتعلق بشأن القضاء والقضاة، وأن القضاء الشرعي أمانة الله في عنق المتولي له وهو منصب شريف... منصب الأنبياء والخلفاء الراشدين، فقد كان رسول الله ﷺ قاضياً وأبو بكر قاضياً وعمر قاضياً وعثمان قاضياً وعلي قاضياً؛ لكون القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر.

فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، والأصل فيه قوله سبحانه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(١).

شرع القضاء الشرعي رحمة للناس، وراحة لهم في قطع النزاع عنهم، وإزالة الشقاق بينهم، وإقامة الحدود واستيفاء الحقوق، وردع الظالم ونصر المظلوم.

لو أنصف الناس استراح القاضي وبات كل عن أخيه راضي

فمن واجب القاضي أن يحتسب راحة الناس ورحمتهم بقطع النزاع عنهم، وأن يحتسب التبكير في الجلوس للناس ليتمكن من إنجاز القضايا، وأن يفتح باب المحكمة على مصراعيه ليتصل به كل محتاج إليه، ثم يبدأ النظر في قضايا الناس الأول فالأول، كما نص على ذلك الفقهاء في أحكام القضاء، وليعلم أنه كالمستأجر لهذا الشأن عدد الساعات التي يجري بها نظام الحكومة الرسمي.

فهؤلاء القضاة الذين يغلقون أبواب المحاكم عليهم، ويتركون الناس خلف الأبواب، يغشاهم الذل والصغار، وربما لا يفتح باب المحكمة إلا بعد مضي ثلاث ساعات أو أربع ساعات من أول النهار؛ لعدم احتفاله بأمر الناس وضعف الرقابة عليه، وربما يمضي أكثر وقته في مصالح نفسه الخاصة، فشهر للحج وشهر للعمرة وشهر للمصيف هنا وهناك ويترك الناس يموج بعضهم في بعض بالنزاع والخصام، وهو بالحقيقة مستأجر شرعاً وعرفاً لحل مشاكلهم.

فهؤلاء بالحقيقة يعتبرون بأنهم مخالفون لنصوص مذهبهم ونظام دينهم.. فإن جلوس القاضي في محل عمله لفصل القضاء بين الناس هو أمر واجب عليه، وهو مستأجر له، وهو أفضل من تطوعه بحجه وعمرته وصيامه بمكة؛ لكون هذه ليست بواجبة عليه وقد لا تصح منه والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تحريراً في ٨ جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ.

---

(١) سورة ص: ٢٦ .